من افتراءات المستشرقين على رسالة نبينا ﷺ

أكذوبة الصرع والرد عليها

في المقال السابق تعقبنا الغلاة من المستشرقين الذين اتهموا نبينا ﷺ بأنه لم يوح إليه، بل كان يتخيل أمورًا غريبة هي عند المستشرق (جب) مستوحاة من بيئته التي كان يعيش فيها، ويظن أنها وحي من السماء، وكان الجلد لهؤلاء بالأدلة والبراهين النقلية والعقلية، وأثبتنا من خلال هذه الأدلة أن الوحي: حقيقة لا خيال، وأن الرسالات السماوية: اصطفاء من الله تعالى لا اكتساب، بل هي فضل الله يؤتيه من يشاء.



أ.د/ عبد المنعم فؤاد (*)

وفي هذا المقال نتتبع شطرًا مما افتروه أيضًا على المصطفى -عليه الصلاة والسلام - ومنه أكذوبة الصَّرَع التي نسبوها لخير عقلاء الدنيا، وهو الحبيب المصطفى النبي الأكرم -صلوات ربي وسلامه عليه- الذي زكَّى الله -سبحانه- عقلَه في كتابه العزيز قائلًا: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ (النجم: ١، ٢)، وزكَّى لسانه فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ (النجم: ٣)، وزكَّى وحيه فقال: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٤)، وزكَّى جليسه فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ (النجم: ٥).

لكن هؤلاء الغلاة أصروا على المغالطة، واستكبروا استكبارًا فاتهموه ﷺ في عقله، ووحيه، ونطقه فادَّعوا: أن محمدًا ﷺ كانت تصيبه نوبات صرع على فترات فيتكلم بكلام يقول مرة إنه قرآن، وأخرى: حديث قدسي، وثالثة حديث نبوي، وبذلك كون رسالة مليئة بالحكايات، والأساطير، وزعم أنها ربانية بينما ما يقوله هومن آثار المرض»[1].

وهذا من عجيب ما ذهبوا إليه، وما أكثر عجائبهم لإنكار رسالة سماوية واضحة المعالمكالشمس وضحاها، وبساطة العقيدة فيها كالقمر إذا تلاها، وسماحة الشريعة بها كالنهار إذا جلاها. ولذا، أقول لهؤلاء:

(*) عميد كلية العلوم الإسلامية للوافدين.

(١) راجع دائرة المعارف الإسلامية ج٢ - ص١١٢ - وكتاب حياة محمد ﷺ ص٤٠ لمحمد حسين هيكل والمستشرق نيكلسون ومفترياته على الإسلام ص٢٧٠- وأوربا والإسلام ص٨٩.

أولا: إن هذه الأكذوبة (أكذوبة الصرع أو المرض النفسي) التي أطلقتموها -ضمن ما تطلقون من أكاذيب- هي في الحقيقة عليكم لا لكم، وفي صالح ثبوت رسالة النبي ﷺ، وليست في صالحكم، ودائمًا يترك الله بعض الحق عند الأحمق ليدل على حمقه، ونبي الإسلام -عليه الصلاة والسلام- كانت تُصيبه ساعة أن يتنزل عليه الوحي حالة خاصة فيتصبب، ويتصبب جسده عرقًا، ولكن لم يكن ذلك بسبب المرض المزعوم، بل نتيجة لثقل الوحي ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (المزمل: ٥)، وكان الوحي يتنزل عليه في أوقات كثيرة بقدر كبير من الآيات فيستغرق وقتًا طويلًا بعد ذلك ليحكيه، ويقرأه على أصحابه، فإذا قرأه كتبه كتبةُ الوحي خلفه، فإذا ما دخل في الصلاة يقرؤه كما هو مكتوب تمامًا لا ينسى حرفًا، ولا يغير لفظًا، ولا يبدل جملة، بل يعيده كما قال.

فهل يتوفر ذلك في مريض الصرع، وهل يستطيع المصروع بعد أن يفيق من نوبة الصرع أن يذكر شيئًا مما فعله أو قاله؟!

إن ذلك لم يثبت أبدًا في دنيا الواقع، فمن أين أتيتم بما تزعمون؟

ثم تعالوا لنسمع كلمة الأطباء وعلماء النفس في ذلك. إنهم يقولون: إن نوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أي ذكر لما مر به أثناءها، بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسيانًا تامًا، ولا يذكر شيئًا مما حل أو مر به خلالها؛ ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطُّل، ويخرج كذلك عن هدوئه وثباته. ذلك هو ما قاله الأطباء وعلماء النفس[٢].

وهو لا ينطبق البتة عن صاحب الرسالة الموقر؛ إذ كان -عليه الصلاة والسلام- حين يأتيه الوحي في منتهى الهدوء، وفي منتهى السكون، وفي منتهى الاستقرار، وكان إدراكه الروحي والفكري في غاية التنبه.

فإذا ما انفصلت عنه هذه الحالة: حكى كل ما أوحي إليه من خلال ذاكرة حافظة بلا نسيان.

وفي هذا الأمر دليل على أن النبي محمدًا ﷺ في استيعابه: يخالف ما هو مألوف لدى البشر جميعًا؛ لأن ذاكرته أُعدت إعدادًا خاصًا من قِبل الحق -جل وعلا-، لتكون وعاءً لما يوحى إليه، ويبلغ، وهذا الأمر صادر عن قضية صادقة، ذكرها القرآن الكريم هو قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴾ (الأعلى: ٦).

وإلا فهاتوا أيَّ إنسان -كما يقول فضيلة الشيخ الشعراوي- ليتكلم ربع ساعة ثم سجلوا عليه ما تكلم به، ثم قولوا له أعد علينا ما تكلمت به، فإنه لا بد أن يُخطئ ... ولكن صاحب الرسالة ﷺيسجل ما يقوله في أثناء الوحي، ويقرؤه بعد ذلك في كل وقت، فلا نجد فارقا بين هذا وذاك[٣]. وكل كتب السير والتواريخ أثبتت ذلك لرسول الله ﷺ.

---

(٢) نقلًا عن: حياة محمد ﷺ ص٤٠ د/ هيكل.
(٣) شبهات وأباطيل خصوم الإسلام، ص٣٦.



ومن ثمّ رأينا المستشرق (دوغويه) أحد المعتدلين في بعض أحكام المستشرقين -ومعه كثيرون-(٤): ينظرون إلى ما وثقته كتب السير عن حفظ الرسول ﷺ وما قاله العلم في صفات المصروع، فيتهكم بمن قال إن محمدًا ﷺ كان مريضًا بالصرع ويقول: «إن هذا الأمر بعيد الاحتمال، ويُعلل لذلك بأن الحافظة في المصروعين تكون معطلة، على حين أن حافظة محمد كانت غاية في الجودة كلما هبط الوحي»(٥).

ثانيًا: أما عن التغاير في الأسلوب:

والذي قالوا فيه: إن محمدًا ﷺ يتكلم بكلام يقول فيه مرة: إنه قرآن، وأخرى: حديث قدسي، وثالثة: نبوي، وجعلوا من ذلك مصدر تشكيك.

أقول: إنكم لو نظرتم لوجدتم أن هذا التغاير في الأساليب لا يقوى عليه إلا رسول موحى إليه برسالة؛ لأن الأسلوب هو الطريقة اللازمة للشخص في أداء المعاني، فلو أتينا بإنسان له موهبة عالية في الإلقاء، والتعبير، وسجلنا له مميزات أسلوبه، ثم سألناه أن يأتي بأسلوب آخر، وسجلنا له الأسلوب الآخر، ثم غيره إلى ثالث: فإنه لا يستطيع أن يتخلص من أسلوبه الأول أبدًا، بل سنرى كل أسلوب امتزج بالآخر في أداء المعاني، والأداء سيأخذ تشخيصًا لا يمكن أن يتبرأ منه صاحبه.

أما إذا جئنا إلى ما ذكره الرسول ﷺ فإننا نجده يأتي بأسلوب قرآني، وآخر حديث قدسي، وثالث حديث نبوي، والأساليب مع أنها ثلاثة، ويقول بها شخص واحد إلا أنه لا يمتزج فيها أسلوب بالآخر، بل لكل أسلوبه وخواصه، ومميزاته، وطبائعه، وهذا من غير شك لم يأت به المصطفى ﷺ من نفسه؛ لأنه فوق طاقة البشر، والذي أوحاه إلى رسول الله ﷺ هو خالق البشر، والفارق: أن القرآن الكريم يُتحدى به، ويتعبد بتلاوته في الصلاة، وغيرها لأنه موحى به، والحديث القدسي، والحديث النبوي موحى بهما إلا أنه ليس لهما صفة التحدي، ويوضح ذلك بصورة جلية فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي -رحمه الله- قائلًا: «يجب أن يُفهم أن الاختلاف بين أسلوب القرآن، وأسلوب الحديث القدسي، والنبوي لا يجوز أن يكون مصدر تشكيك، وإنما يجب أن يكون دليل إيمان بصدقه، وبأن الرسول يعطينا ثلاثة أساليب للأداء بحيث لا يشترك أسلوب مع أسلوب، ولا تشتبه طريقة أدائية بطريقة أدائية أخرى، بل لبعضهما خواص التحدي مثل القرآن، أما الحديث القدسي والنبوي فليس لهما خواص التحدي إلا أن الأول توقيفي، والثاني بعضه توقيفي، وبعضه توفيقي كما يرى بعض العلماء»(٦).

فهل يصلح بعد هذا العرض أن يدعي مستشرق غير منصف مثل (نولدكه) ومن سار على نهجه: أن يتهم نبينا الأكرم بأن تغايره في أسلوبه كانت نتيجة لما أصابه من مرض الصرع؟!

---

(٤) من أمثال ول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) وأرفنج في كتاب (حياة محمد) وآتين دينيه في كتابه (الرسول محمد) ودور منغم في كتابه (حياة محمد) حيث عقد هؤلاء فصولًا مسهبة أحيانًا في كيفية الوحي الذي اعتمد بعضهم فيها على الأحاديث الصحيحة والسيرة النبوية الموثقة. انظر: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين: ص١١٤ نذير حمدان.

(٥) نقلًا عن أوربا والإسلام ص٨٩، ٩٠.

(٦) شبهات وأباطيل خصوم الإسلام، ص٣٩.

ثالثًا: إنكار الرسالة تكذيب للعهد القديم -عندهم-:

وأخيرا أقول لمن يصر على إنكار الرسالة الإلهية التي أتى بها المصطفى ﷺ من المستشرقين ويحاول أن يرجعها إلى البيئة المكية، أو يحكم على صاحبها بأنه مريض بالصرع - حاشاه ﷺ -، أقول: إنكم أيها المستشرقون في كل بقاع الدنيا إن ادَّعى أحدُكم أنه يهودي الديانة يؤمن بما جاء في أسفار اليهود المسماة عندكم بـ (التوراة) أو (العهد القديم) كما يطلق عليها الآن، وبكل نص فيها، أو فيه، ثم تحاولون إنكار رسالة محمد ﷺ والذي جاء بعد سيدنا عيسى وموسى -عليهما السلام- فإن إنكاركم هذا هو: أداة إثبات بأنكم تخالفون نصوص كتبكم التي بها تعتقدون؛ ذلك لأن هناك فقرات تدلل على أنه سيُولد في مكة نبيٌّ وهو خاتمٌ للنبيين. وهو صاحب الرسالة الإلهية التي تعترضون عليها الآن، ونستشهد بفقرة واحدة من عشرات مبثوثة في العهد القديم منعًا للتطويل، وقد جاءت في سفر التثنية تقول: «جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس»(٧)، (ومثلها في سفر حبقوق)(٨).

قال المحققون من الباحثين: إن مجيئه من سيناء يعني: إنزال التوراة على موسى -عليه السلام- في طور سيناء كما هو معلوم عند أهل الكتاب، وإشراقه من سعير أي: إنزاله الإنجيل على عيسى -عليه السلام-؛ لأن سعير هي: قطعة في أرض الخليل تابعة لقرية تُدعَى الناصرة، وفيها ولد المسيح -عليه السلام- وباسمها سُمي من اتبعه. وأما استعلانه من جبال فاران فهو: إشارة إلى رسالة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه في أرض مكة؛ لأن اسم فاران بإجماع المسلمين وأهل الكتاب لا يطلق إلا على مكة، ومن قال غير ذلك فقد بعد عن الصواب.

وقد نقل بالتواتر، واتفاق الأمم: أن إسماعيل -عليه السلام- إنما رُبي بمكة، والبرية التي بين مكة وطور سيناء تُسمى: برية فاران، ولا يمكن لأحد أن يدعي أنه نزل كتاب بعد المسيح -عليه السلام- في شيء من تلك الأرض، ولا بُعث نبي.

فعُلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران، ما هو إلا إرسال النبي محمد ﷺ(٩).

وإلا فليخبرنا المستشرقون بنبيّ آخر غير هذا النبي الأكرم خير الخلق ﷺ، وحبيب الحق بُعث في جبال مكة إن استطاعوا.

---

(٧) سفر التثنية إصحاح: ٣٣- فقرة: ٢.

(٨) انظر إيضاحات أكثر لهذه الفقرات من هذا السفر في (أعلام النبوة) لأبي الحسن علي الماوردي ص١٣٢ - نقلًا عن كتاب (سيدنا محمد ﷺ حياته وعظمته) د/ طه حبيش ص١٤٢.

(٩) انظر كتاب (سيدنا محمد ﷺ حياته وعظمته) د/ طه حبيش ص١٤٢، و(في نور العقيدة الإسلامية) د/ محمد أحمد المسير، ص١٣١.